القيم الاجتماعية والأخلاقية في شعر مالك بن الريب
دراسة تحليلية نقدية

د.إسراء طارق كامل

كلية الآداب/قسم اللغة العربية

مقدمة

اللهم لك الحمد أنت أهل ان تحمد، ولك الشكر أنت أهل أن تشكر، عطاؤك ممنوح، وفضلك يغدو ويروح، والصلاة والسلام عل اشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى اله الغر الميامين.

وبعد..

ففرق بين من يولد من رحم الحياة وبين من يولد من رحم الموت فيخلّد. من أن تكون النهاية بداية متفردة..

أن يكون الموت بريد حياة أزلية..أن تكون لحظة الميلاد ثمرة لحظة الفناء..

ليس إعجازا أن يحال الجمر رمادا، لكن الإعجاز كل الإعجاز؛ أن يحول ساعة احتضاره ذهبا خالصا لا تفقده الأيام قيمته؛ وإن تطاول عليه العهد!!

شبابٌ ملهب، وثورةٌ تهلك..

فقرٌ مدقع، و إقدامٌ مفزع..

توبةٌ نصوح، فجهادٌ صادق، فوفاة تؤذِّن بحياة لا تموت..

ذلكم هو مالك ابن الريب التميمي..

محاربٌ ساحته الحياة..

وراهبٌ صومعته الأقدار..

وميتٌ مقبرته الخلود..

بحثت في سيرته طويلا، و أخاله إنما خُلِّد بصدق عقيدته التي لولاها لما كان له وافر الحظ من هذه الشهرة الواسعة.

عشت معه أيام شقائه وعربدته؛ حتى خلتني من عصبته، ثم شهدت توبته، و رأيته يخرج غازيا مجاهدا في سبيل الله، فلما حل به الموت وحيدا؛ وقفت أرمقه ينظم درته الخالدة، فطاب لي أن أتحلى بها، بعد أن أمعنت فيها نظرا، وأعملت فيها فكرا، وها أنا ذا أفاخر بها علنا.

و لأن الأدب مُسكِر؛ وجدتني أتلذذ بالمنهج التحليلي النقدي؛ وأرى أن أنوه إلى أنني لم أسهب في الحديث عن الشاعر وسيرته لثانوية ذلك في مجال البحث.

ولعل ابرز ما يلفت الانتباه في حياة بن الريب هو ذلك التحول الجذري في مسيرة حياته ـــ ان جاز لنا التعبيرـــ من النقيض الى النقيض، فبعد ان كان صعلوكا يعيش حياة مليئة بالمغامرات حيث كانت بادية بني تميم بالبصرة مسرحا حرا لها، فقد رعته وهو يعيش تفاصيل تلك الحياة عندما كان زعيما لطائفة من المتمردين الذين اتخذ منهم فئة تمارس نشاطا اتفقوا عليه، وخضعوا لنظامه، واندفعوا في تحقيق رغباتهم من خلاله .

اقول بعد كل ذلك المسير المناوىء والمناهض لحياة الظلم والعوز تحول ابن الريب الى مجاهد في سبيل الله فاتح للامصار بعد ان ملئت نفسه قناعة مفادها ان طريق الاصلاح الاجتماعي والسياسي له مسالك عدة غير تلك التي تقوم على الاغارة والسلب وان كانت الغاية نبيلة.

ويبدو ان طبيعة شخصيته الميالة الى الزعامة واخذ دور القيادة والريادة في تسيس الامور هي التي دفعته الى تزعم تلك الحركة التي كان شعارها التمرد والعصيان او ذلك النشاط ازاء

المجتمع الذي بدا متجنيا من وجهة نظره واصحابه وسببا من اسباب نهجهم لذلك السلوك القائم على الاغارة والسلب فقد كان مالكا: "فاتكا لصا، يصيب الطريق مع شظاظ الضبي، الذي يضرب به الممثل فيقال:الص من شظاظ"(١).

ووصفه صاحب الموشح بالقول:"كان ظريفا اديبا فاتكا،اصاب الطريق مدة ثم نسك، فأمنه بشر بن مروان(٢).

فهو يقرر ان مالكا: "تاب عما كان عليه لأن النسك ـــ مثلما هو معروف ـــ يعني الانصراف الى العبادة، وليس التوبة بعد اصابة الطريق وقد اكدت حياته حقيقة توبته لاتنسكه مثلما عرف عنه"

وعده ابن حبيب من فتاك الاسلام(٣).

ولعل السمات الشخصية التي تواردتها المصادر عن مالك بن الريب تجعلنا نتبنى باطمئنان الرأي القائل:بان الفاظ الصعلكة والفتك لم تكن الا رديفا لمعاني الشجاعة والفروسية والبطولة والجرأة ـــ وليس الفقر وحده ـــ فالعرب منذ عصر ما قبل الاسلام عدت الصعاليك ذؤبانها كما ذكر صاحب (اللسان) و جعلوا لفظة اللص وما يلحق بها من مرادفات من بينهم لا لأنهم يشبهونهم في السمات الخلقية وانما لأنهم يتحصلون على ارزاقهم بذات الوسيلة وهي الاغارة والسلب وان اختلفت في جوانب رئيسة منها، فقد لايحتاج عمل اللص الى شجاعة وفروسية واستعمال للسلاح بل يتعمد اسلوب المراوغة والمكر والاحتيال على ضحيته(٤).

اما الفاتك فليس من الضروري ان يكون لصا يغير على الناس وممتلكاتهم؛ ليغصبها بل يسارع الى انفاذ ما هم من اموره ودعته اليه نفسه على سبيل الثأر[١]. من هنا يمكننا القول: ان تداخل النعوت قديما كان من بين الاسباب التي ادت الى وقوع الدارسين المعاصرين في اشكالية تسمية هذه التسمية من الشعراء ومن بينهم شاعرنا مالك بن الريب .

لقد اجتمعت عدة عوامل وبواعث ادت بمالك ومن تبعه من الفتاك الى سلوك طريق التمرد والاغارة والسلب يأتي في طليعتها العاملين: السياسي والاجتماعي وما اصابهما من خلل؛ نتيجة لاضطراب الحياة السياسية والتمسك بالروح الجاهلية، فالعمال الذين كانوا يعملون على بيت المال لم يكونوا امناء في توزيعها على من يستحقها،اذ استاثروا بها لانفسهم فضلا عن تأثر بعض خلفاء بني امية بالسياسة في تطبيق النظام المالي وجباية الصدقات واموال الخراج التي ادت الى افقار القبائل المناوئة للسلطة من جهة، بابهاظها بالصدقات واغناء القبائل المناصرة للسلطة بتخفيف الجباية عنها من جهة ثانية؛ لذلك تبى ابن الريب وجماعته من الفقراء هذا الطريق وهذه السياسة في الحياة كرد فعل على عدم المساواة والظلم الذي لحق بهم وقبائلهم، فكانوا يجاهرون بعداوتهم لبني امية من جهة وبالإغارة والسلب لإقامة أود العيش من جهة اخرى.(٥)

كما اسهمت سياسة بني امية في تقريب القبائل اليمانية وتحيزهم لها على حساب قبائل مضر في اضطراب الاحوال السياسية والاجتماعية انذاك؛ فنشأت تبعا لذلك فئة يمكن ان نستعير لها تسمية "الصعاليك السياسيين(٦).

وهم الذين اسهم العامل الاقتصادي في توجيه حركتهم لا الى الإغارة حسب؛ لتحصيل ارزاقهم بل ايضا الى توعد النظام الحاكم والسعي للانقلاب عليه وهو الاتجاه الذي تزعمه ابن الريب، وعبيد الله بن الحر الجعفي، وعبدالله بن الحجاج الذبياني وسواهم من الشعراء الفتاك الذين ما برحوا يهددون العمال والولاة والخلفاء بالثورة والعصيان، وسلب اموال الدولة عن طريق منعهم وصول خراج بعض الأمصار الى بيت المال(٧).

لقد كان الفقر والعوز والاحساس بالظلم والجور من قبل السلطة الحاكمة المشكلة التي اقضت مضجع ابن الريب ومن سلك مسلكه، فكان التمرد الوسيلة التي مثلت رد الفعل على هذا الظلم السياسي المتمثل بالفئة الحاكمة والظلم الاجتماعي المتمثل بوقوف بعض قبائل اولئك الشعراء الى جانب السلطة ومن يمثلها؛ لتحقيق مصالح خاصة على حساب معاناتهم وفقرهم فكان الظلمين السياسي والاجتماعي وما تبعهما من تعصب قبلي المشكلة التي ارقت ابن الريب

وصحبه، فكانت القضية التي تبنى محاربتها والتصدي لها والتي كانت من ابرز اسباب نبذه وطرده سياسيا واجتماعيا.

وقد لانجانب الصواب اذا قلنا بتداخل البواعث الاجتماعية والسياسية مع بعضها في تشكل حياة مالك ابن الريب وهي رؤية ايدها الباحث احسان سركيس من قبل عندما اختار ان يسمي طائفة من الشعراء بـــ " الصعاليك" وقدم بذلك تعليل مفيد اشار فيه الى انه بمواجهة الدولة قامت الأحزاب المناوئة لها، وأنه: " بإزاء ما كان يقع من ظُلم وجور على الأفراد والقبائل والجماعات، كانت الشكاوى والالتماسات، وبين هؤلاء وهؤلاء قام أفراد يلتمسون الوصول إلى ما يرومون من خلال حركات تجمع بين التمرد والثورة وقطع الطريق و من بينهم جماعة اصطُلح على تسميتهم باسم" الصعاليك " تمشياً مع الاسم الذي التصق بأمثالهم في العصر السابق للإسلام"[٢] ليعود فيقرر أنه: لئن كانت التسمية تحمل قدراً من التماثل في الدوافع الذاتية، فإنها على صعيد المجتمع والدولة الجديدين لا تفيد المقارنة او المماَثلة؛ لأن الصعلكة اختفت في صدر الإسلام، وأن ظاهرة الصعلكة الجديدة كانت وليدة مجتمع تسوسه دولة لم تقطع الصلة تماماً مع الحياة القَبلية بحسب رأيه، حيث: الامتياز والحرمان، والنصَفة والمحاباة، التي كانت وراء انتشار الفقر والشعور بالحرمان بين بعض القبائل، والتي من خلالها بدأ بعض الأفراد والجماعات يتمردون على سياسة الأمويين المالية، والتصميم على انتزاع حقوقهم بأيديهم، وإن تلك السياسة – في رأيه – ظلّت أهم باعث من بواعث هذا التمرد(٨).

وبذا تكون الصعلكة عند مالك بن الريب ظاهرة تمثل في جزء كبير منها حركة التمرد والغضب الواسع ازاء السلطة وما اتخذته من وسائل في مناوئة الشاعر وتمرده.

وبالمقابل فان هذه الحركة شابها الخوف من بطش السلطة الحاكمة وهو ما يفسر اختفاء وتواري مالك ابن الريب واقرانه من بطشها بعد ان خذلتهم مجتماعتهم المتمثلة بقبائلهم التي كانت هي الاخرى تخشى بطش السلطة وانتقامها اذا ما ساندت اولئك الفئة من المجتمع فما كان منها الا التشرد في الصحراء بعد ان ادركوا انهم صنف خارج على الدولة والمجتمع.

غبر ان سلوكه طريق الاغارة والسلب لم يؤثر في سماته الشخصية وطريقة تعاطيه مع الحياة ومباهجها، فقد كان ابن الريب وكما اجمعت المصادر التي ارخت لسيرته الذاتية من اجمل العرب جمالا، وابينهم بيانا، واحسنهم ثيابا(٩).

وهو ما دعا سعيد بن عثمان بن عفان "رضي الله عنهما " الى الاعجاب به والتودد اليه، ومن ثم اقناعه بالانظمام الى جيشه مجاهدا في سبيل الله وفاتحا للأمصار، فكانت تلك نقطة التحول في سلوك مالك بن الريب ومسيرته.

لقد احس سعيد بن عثمان ابن عفان(رض) ان في مالك من صفات المروءة والشجاعة والاقدام ما يؤهله لأن يسلك مسلكا جديدا في حياته، فهو على ما يبدو لم يكن ليختار طبيعة حياته الاولى عن هوى او قناعة انما هي قساوة الظرف الاجتماعي وتنكر المجتمع له هو من فرض عليه ذلك السلوك السلبي اذا ما اخذنا في الحسبان ان كل مجتمع في أي مكان وزمان اذا ما انشغل عنه ولاة الامور وحكامه بالسلطة ومباهجها كما في عهد الشاعر، الذي شابته الخصومات السياسية والاختلافات المذهبية والتي انعكست على المجتمع وتوافقه، فكثرت المناحرات، واوقدت العصبيات وتفرق المجتمع فرقا ومذاهب، وتأججت الخلافات فإن ذلك سينعكس بالضرورة سلبا على المجتمع بكافة جوانبه وعلى افراده وتوجهاتهم بمختلف مشاربهم.

وهو ما يؤكده جواب ابن الريب لسعيد بن عثمان بن عفان(رض)عندما سأله عن الدوافع التي آلت به الى طريق العبث وقطع الطرق والتمرد فأجابه قائلا: "يدعوني إليه العجز عن المعالي، ومساواة ذوي المروءات، ومكافأة الإخوان .قال سعيد: فان انا اغنيتك واستصحبتك اتكف عما كنت تفعل؟ قال: أي والله ايها الأمير، اكف كفا لم يكف احد احسن منه، فاستصحبه سعيد وجعل له خمسمائة درهم كل شهر(١٠)

وهنا تبدأ شخصية مالك بن الريب في استجلاء مكنوناتها، فقد كان ما فات سحابة سوداء دخيلة على مكنونات نفسه المفعمة بالقيم الانسانية والخلقية النبيلة والتي تجلت لرائيها بمجرد ان مدت لها يد العون والنصيحة وقد كان ذاك.

وما هذا إلا لأنه كان منذ البدء يتمتع بخصائص وسمات خلقية تؤهله لذلك فلم تكن امور الاغارة والسرقة والسلب شيئا متأصلا في نفسه انما هي امور فرضتها عليه قساوة الحياة ومشاقها فكان ذلك السلوك سبيلا منه للتعبير عن سخطه على مجتمعه الذي لم يشأ انصافه واقرانه ممن عاشوا حياة البؤس والفاقة.

لقد تأصلت في نفس مالك سمات خلقية مثل: المروءة، والكرم، والشجاعة وهي امور تليق بروح ابن الريب التي شاب صفوها الم الحرمان والعوز. نعم انه فارس لايهاب الصعاب منذ كان صعلوكا متمردا والى ان غدا مجاهدا فاتحا للأمصار داعيا للقرب من الله تعالى وهو ما عبر عنه بالقول:

وما انا كالعير المقيم لأهله على القيد في بحبوحة الضيم يرتعُ(١١)

لم يكن مالك من اولئك الخاملين الذين يقبعون تحت خوف السوط والسيف على الرغم من بطش السلطة بل كان يندد ويجاهر بالرفض وهو ما سخر له شاعريته الفذة لانتقاد سياسة الامويين الجائرة في معاملة القبائل العربية، فقد اعتمدت سياستهم على التقرب الى هذه القبائل في وقت الشدة وقيام الثورات والانتفاضات ضدهم، حتى اذا ما ساعدتهم تلك القبائل في القضاء على الثائرين بدافع سياسة العدل التي منوهم بها الامويون وجدوا ان تلك الأماني كانت كالسراب الذي يحسبه الضمآن ماء، فما ان يقمع الامويون تلك الثورات بمساعدة هذه القبائل حتى يعودوا الى سيرتهم الاولى في الظلم والاضطهاد وقمع الحريات وسلب الحقوق وفي ذلك يقول مالك بن الريب:

احقاً على السلطانِ:اما الذي لهُ فيعطي، واما ما يرادُ فَيمنعُ

اذا ما جعلت الرملَ بيني وبينهُ واعرض سهبٌ بين يبرين بلقعُ

من الأدمي لايستَجمُ بها القطا تظلُ الرياحُ دونهَا تتقطّعُ

فشأنُكم يا آل مَروانَ فاطلبوا سِقاطي بما فيهِ لباغيهِ مَطمعُ(١٢)

لقد دفع ابن الريب ثمن قضيته التي من اجلها سلك طريق التمرد؛ لمحاربة الظلم فلقي ما لقي من مطاردة السلطة له وتعقبها لخطواته املا في القضاء عليه اذ ظفر به والي مكة، فحبسه وعذبه عذابا شديدا وهو ما وصفه مالك بالقول:

أتلحقُ بالريبِ الرفاقُ ومَالك بِمكةَ في سجنٍ يعنيهِ راقبه

وقد دامت مدة حبسه طويلا الى ان استشفع له شماس بن عقبة المازني عند والي مكة فاطلق سراحه(١٣).

وعلى الرغم من المضايقة والعداوة التي ناصبها اياه النظام الحاكم انذاك الا ان الشاعر لم يكن ليمل او يتراجع عن مواقفه الساخطة على سياسة بني امية واتباعهم في الحكم وهو ما يؤكده قوله هاجيا مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة بعد ان بلغه توعد مروان اياه:

ألا من مبلغٌ مروانَ عني فإنّي ليس دهري بالــفرارِ

ولا جَزعٌ مِن الحدثانِ يوماً ولـــكـــنّـــي اورد لـــكـــلـــم وبـــــــارِ

بهزمارِ تراد العيس فيها اذا اشفقنَّ من قلقِ الصفارِ(١٤)

وليس بغريب موقف ابن الريب من السلطة الحاكمة انذاك بعد ان جارت عليه وحرمته من ابسط حقوقه في العيش الكريم، فكانت ثورته على هذا النظام تعبيرا عن رغبته في الاصلاح الاجتماعي ومن قبله الاصلاح السياسي والتمرد على كل اشكال العصبية القبلية.

ان مالكا يعبر عن منعته وتأبيه وتلك نغمة نعرفها عند اترابه من الشعراء الفتاك غير ان الذي يلفت النظر بشدة هو هذا البصيص من نور الايمان، وتلك اللمحة الخاطفة من رصيد التدين التي تبدت في قوله:

ولـــــولا رســـــولُ الله ان كـــان مـــنكمُ تبين من بالنّصفِ يرضَى ويَقنعُ(١٥)

فالرجل على الرغم من تمرده وشائبة طريقه الذي كان يسلكه لايفتأ يذكر الله عند نومه ويأمل ان يظل في رعايته وتلك نفحة ايجابية ميزته عمن سواه من جهة واكدت استعداده النفسي للعدول عن هذا السلوك المرفوض اجتماعيا الى سلوك ايجابي يتضمن معاني الاستقامة والتوبة الى الله وهو ما نلمحه من قوله:

وضعتُ جَنبي وقلتُ الله يكلؤنّي مَهما تنم عنكَ من عينٍ فما غفلا(١٦)

لقد عاش ابن الريب الشطر المبكر من حياته صعلوكا متمردا بانتظار من يمد له يد العون للخروج من منحته ذات الابعاد السياسية والاجتماعية حتى اذا ما وجد بصيص الامل الذي يخلعه عن هذه الحياة تبعه طائعا قاصدا وجهه تعالى وميمما وجهه شطر نوع آخر من الاصلاح يكمن في نشر الدين الاسلامي وفتح الامصار التي لم يصلها الاسلام بعد ان ايقن ان ثمة طرق اخرى للاصلاح باتجاه الجهاد في سبيل الله وبث روح الاسلام بين صفوف المجاهدين املا في احدى الغايتين النصر او الشهادة وهو ما نستجليه من خلال مشهد وداعه لابنته التي تعلقت بثوبه وبكت قائلة له:"اخشى ان يطول سفرك او يحول الموت بيننا فلا نلتقى، فبكى مالك وانشأ يقول:

ولقد قلتُ لابنتي وهي تَبكِي بـدخـيـلِ الـهمـومِ قـلبـاً كَـئيـبـا

وهي تَذري الدموعَ على الخدِّ ينِ من لوعةِ الفُراقِ غـروبـا

عبراتٍ يكدنَّ يجرحنَّ ما جُز نَّ بـهِ او يَـدعـنَّ فيـهِ نـدوبـا

حذرَ الحتفِ ان يُصيبَ اباهَا ويُلاقيي في غيرِ اهلٍ شعوبَا

اسكتي قد حززتِ بالدمعِ قلبي طالما حـز دمعـكـنَّ الـقلـوبـا(١٧)

ولابد من القول: إنه إذا كان التشرد ودخول السجن من أبرز البواعث على الخوف والحنين إلى الأهل والديار ، فالخوف تحديداً كان بدوره باعثاً على بروز موضوعة الإيمان والحكمة في أشعار مالك بن الريب وهي موضوعة جديدة تماماً من ناحيّتي :المضمون والبعد

الفكري والنفسي لدى هذا الشاعر، والتي تستحق التوّقف عندها واستجلاء ما يمكن استجلاؤه من جوانبها المختلفة، وإن كانت الموضوعة نفسها أقدم ظهوراً في الشعر العربي عامة وشعر عصر صدر الإسلام، فالعصر الأموي خاصة.

ولعل من أبرز جوانب جدة موضوعة الإيمان التي تبرز في شعر مالك، الجانب الذي يمثّل تعاظم ما يمكن تسميته بـــ : ـــ" التيار المعبر عن الزهد أو المؤسس للشعر الزاهد في الأدب العربي الذي كانت ملامحه قد ظهرت حتى في العصر السابق للإسلام، وبرزت أكثر في صدر الإسلام والعصر الأموي"(١٨).

وقد كان ابن الريب من ابرز من يمثلون هذا التوجه او المضمون الفكري من مضامين الايمان وهو ما خاطب به ابنته لرحيله و التحاقه بسعيد بن عثمان (رض):

فعسَى الله ان يُدافعَ عني ريبَ ما تحذرينَ حتى اؤوبا

ليس يشاؤهُ ذو المعالي بعزيزٍ عليه فادعِى المجيبا

ودعي ان تقطّعي الآن قلبي او تريني في رحلتي تعذيبا

انا في قبضةِ الإلهِ اذا كنـــ تُ بعيداً او كنتُ منكِ قريبا

كم رأينا امرأً أتى من بعيدٍ ومُقيمـــاً على الفـــراشِ اصـــيبا

فدعيني من انتحابكِ انّي لا ابالي اذا اعتزمتِ النحيبا

حسبي الله ثم قربت للســـ ير عـــــلاةً انجب بهـــا مركوبـــا(١٩)

وفيها يقول مالك ملخّصاً موقفه الفلسفي المؤمن بالله تعالى وقضائه:

أَنا في قبضة الإله إذا كُنـــ تُ بعيداً أو كنتُ منك قريبا(٢٠)

نعم انها دموع فاتك الامس مجاهد اليوم الذي تعلق قلبه بالايمان والتقوى والتسليم لأمر الله .وتبعا لهذا الايمان بسلامة الوجهة التي اختطها الشاعر لنفسه، فقد ابلى بلاء حسنا تحت لواء

اميره سعيد بن عثمان وقد تبع ذلك الامر ابتعاد ابن الريب عن اهله ووطنه وهو ما عانى منه الشاعر كثيرا وبثه قصائده ومقطعاته الشعرية المفعمة بالرقة والعذوبة يقول:

تذكرني قبابُ التركِ اهلي ومـبـــداهـــم اذا نـزلـوا سـنـــامـا

وصوتُ حمامةٍ بجبالِ قسٍ دعت مع مَطلعِ الشمسِ الحَمامَا

فبتُ لصوتِها ارقاً وباتت بِمنـطقهـا تـُـــراجعنـي الـكـلامَـا(٢١)

هكذا نجد انفسنا ومالكا في نطاق اخر من السمو الوجداني والخلق الانساني اللذين افتقناهما لديه في المرحلة السابقة من حياته ولكن شعره الانساني يصل الى ذروته حين احس بالموت يقترب منه وهو غريب عن اهله وديارِه وما اكثر ما رثى الغرباء انفسهم عندما اشرفوا على الوفاة غير ان قصيدة مالك تاني في طليعة القصائد جمعيا صياغة واحساسا وانفعالا وايقاعا وصدقا ولنستمع اليه وهو ينشد ناشجاً متمنياً:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً بجنبِ الغضا أُزجي القلاصَ النواجيا

فليتَ الغَضا لم يقطع الركب عرضهُ وليتَ الغَضا ماشى الرِكابَ لَياليا(٢٢)

ثم إلى القولِ المباشر، تعبيراً عن حنينه الجارف إلى أهله حيث يقيمون:

دعانِي الهوى من أهلِ أود وصحبتي بذي ال طبسينِ فالتفتُّ ورائيـا

أجـبـتُ الهـوى لمـا دعـاني، بزفـرة تـقنَّعـت منهـا أن أُلام، ردائيـا(٢٣)

وهكذا يتذكر ابنته التي بكت قُبيل رحيله مع سعيد بن عثمان(رض) إلى خراسان، ويتذكر أبناءه وماله والظباء والرجال الذين كانوا شهوداً على فتكه في ساحات الوغى، ثم من يبكي عليه في غربته، حيث لا يجد سوى :السيف والرمح الرديني والأشقر المحبوك حصانه والنسوة المقيمات بأكناف السمينة، وتفاصيل مختلفة من حياته قبل رحلة الموت تلك، حتى لتكاد القصيدة تكون دستوراً لجميع المقاتلين الذين شاركوا في الفتوحات الإسلامية التي

تعاظمت واتّسعت رقعتها وابتعدت، مشرقة ومغربة، مثلما وصفت لامية الشنفرى بـــ "دستور الصعاليك"، وهذا بحد ذاته من بين أهم أسباب ذيوع هذه القصيدة وانتشارها، وخلودها أيضاً، على مر العصور، مع ما رافقها من آراء.

فهي ا تُمثّل خلاصة متكاملة لحياة الإنسان العربي الذي كان يعيش جاهليةً قربته من قطّاع الطرق واللصوص المشردين، حتى إذا أسلم لله تعالى وآمن، كان عليه – طائعاً أو مكرهاً – أن يؤدي فريضة الجهاد، وأن تأخذه الفتوحات الإسلامية بعيداً عن أهله المباشرين وقومه وأرضه، وأن يقع مأزوماً في التناقض بين أداء حقوق الدين وواجباته وأداء حقوق الأهل والأحبة، من كان على شاكلة ابن الريب ومثالِه من أبناء الجزيرة العربية والمناطق المجاورة لها .

ولأن كانت موضوعة الايمان من الموضوعات الرئيسة التي طرقها ابن الريب فان الاعتداد بالنفس موضوع آخر تجلى بوضوح في اشعار ابن الريب فهي تتضمن إلى جانب الاعتداد الشخصي بالنفس نوازع إنسانية وأخلاقية، فهو لم ينس وه في غمرة أحاسيس الالتصاق الوجداني، كبرياءه وإباءه والتزامه الأخلاقي الذي كان من شأنه أن يحقق له الاندماج والتوافق الاجتماعي مع المجتمع الذي عاش ضمنه.

لقد ظهرت صور الاعتداد النفسي هذه، وفي مقدمتها" :الكرم وهو يصل إلى أبعد مراحله، والشجاعة وهي تتّسع لأكبر مساحة من الأقدام، والتضحية والإيثار وهو يأخذ أعمق بعد من أبعاد شموخه وتعاليه الأبرز داخل إطارهذه الموضوعة الرئيسة، التي تجّلى إبداع هؤلاء الشعراء المضموني والفكري فيها، مثلما تجّلى في الموضوعات السابقة، وإن بدت هذه الموضوعة بالذات قريبة الصلة – من حيث النظرة الخارجية – بما عبر عنه معظم شعراءالعصر السابق للإسلام وعصر صدر الإسلام، لا بل حتى من عاش معهم ضمن العصر الأموي من الشعراء.

وحين نتوقف عند صور الاعتداد بالنفس لدى لهذا الشاعر،فسنجدنا معنيين أولاً بذلك الشعر الذي قدم من خلاله رؤية لها صلة وثيقة بأوضاع وأحوال محددة سادت العصر الذي

عاش فيه، وبشؤون حياته وعلاقاته مع السلطة الأموية، خلفائها وولاتها وعمالها وشرطتها وسجونها فهي أي هذه الأشعار الأكثر تعبيراً عن صورة هذا الاعتداد الذي صقلته تلك الظروف والأحوال والعلاقات وهي صور ميزته عن سواه من الشعراء.

فها هو ذا يقول وقد طلبه مروان بن الحكم أيام كان عاملاًعلى المدينة في عهد الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان معبراً عن اعتداده بنفسه في مواجهة مطاردة عمال مروان له :

ألا من مبلغ مروان عنّي فإني ليس دهري بالفرار

ولا جزِع من الحدثانِ يوماً ولكنّـــي اورود لكـــم وبـــــارِ(٢٤)

فهو شجاع باسل لا يؤمن بالفرار ولا الجزع من النوائب التي تواجهه، وهو قادر على أن يرتاد أية أرض لم يطأ ثراها أحد قبله.

ويبلغ من اعتداد مالك بنفسه حداً يسخر فيها من ضعف السلطة ويذكّر بلجوئها إلى قبيلته إذا ما خاف آل مروان أمراً من الأمور الخطيرة التي تهددهم، فهو يقول:

لو كنتم تُنكرون الغدر قلتُ لكم يا آل مروان جاري منكم الحكم

نحن الذين إذا خفتُم مجلَّلةً قلتم لنا :إننا منـــكم، لتعتصموا

حتى إذا انفرجت عنكم دجنَّتُها صرتُم كجـــرمٍ فـــلا آلٌ ولا رحـــم(٢٥)

ثم قوله وهو يحكي حادثة الرجل الأسود الذي جثم عليه وهو نائم في إحدى ليالي تشرده قائلا:

اولجت في مهمه ما ان ارى احدا حتى اذا حان تعريس لمن نزلا

وضعتُ جنبي وقلتُ اللهُ يـكَلوُنـــي مهما تَنم عنك من عينٍ فما غَفلا

والسيف بيني وبين الثوب مشفره اخشى الحوادث اني لم اكن وكلا

ما نمـــت الا قليلا نمته شـــئـــزا حتى وجدت على جثماني الثقــلا

داهية من دواهي الليل بيتني مجاهدا يبتغي نفسي ومـــا ختـــلا

اهويت نعما له والليل ساتـــره الا توخيتـــه والجـــرس فـــانـخـــذلا

لما ثنى الله عني شر عدوته رقدت لا مثبتا ذعرا ولا بعـــــــلا(٢٦)

الى ان ينتهي الى قوله:

من يشهد الحربَ يصلاها ويسعرها تـــراهُ مـــمـــا كستـــهُ شاحبـــا وجـــلا

خـــذها فإنـــي لغـــراب اذا اختلفـــت ايدي الرجالِ بضربِ يختل البطلا(٢٧)

ولعل في هذه الابيات وصف دقيق لحياة مالك قبل ان يترك حياة التصعلك والتي يصف فيها شعور القلق الذي كان دائم الملازمة له وهو امر يتوائم وطبيعة تلك الحياة القائمة على التشرد والتأبد فالامر لايسلم من سبع يعدو عليه او لص مغامر قليل الحذر او جاهل بقدر من يهاجمه.

وفي مقطّعة لمالك بن الريب، قالها يوم صاحب سعيد بن عثمان بن عفان(رض) في الطريق إلى خراسان، وفُقد صاحب إبل سعيد الذي كان يحلب لهم،فاستدنى مالك ناقةً غزيرةً واحتلبها، مما جعل سعيداً يطلب منه الإقامة في إبله ويجزل له رزقاً مضافاً إلى رزقه الذي كان قد حدده له عندما اصطحبه معه، وأن يضع القتال عنه، وقد رفض مالك العرض المذكور لأسباب موضوعية تتعلق بتكوينه النفسي والفكري، فهو يستحيي الفوارس أن يرى بأرض العدا مجرد صاحب إبل، يطعمها ويحلبها، ويستحيي كذلك أن يرخى عليه ثوب المسالم إذ تُشمر الحرب:

اني لاستحي الفوارس ان ارى بـــارضِ العـــدا بو المخـــاض الروائـــمِ

واني لاستحي اذا الحربُ شمرت ان ارخي وقت الحربِ ثوبَ المسالمِ(٢٨)

ثم يعرض – عبر المقطعة – مواصفاته الفكرية بإزاء الحالة، لينتهي إلى تقرير كونه:

قليلُ اختلاف الرأي في الحربِ، باسلُ جميع الفؤادِ عند حلِّ العظائمِ(٢٩)

فالموضوعة في هذه المقطّعة واحدة، واضحة جّلية، وغرضها الذي انبنت عليه تأكيد الشاعر موقفه من الحرب، فارساً ومقاتلاً، وليس راعي إبل، مما يعني أن الباعث الفكري والنفسي على إطلاقه هذه المقطعة كان أكبر من مجرد العواطف الباعثة على التعبير الآني المقصود لمواجهة الموقف الآني، فهو عبر عما يمكن أن يكون تراكماً فكرياً يعتمل في عقل أيٍ من أمثاله المقاتلين الفرسان، لا عن لحظة انفلات عاطفي سريع. وقد جاء غرضه محكماً متطابقاً بين التفكير الدائم والفكرة المنبثقة عنه بعفوية ومن دون تشتّت أو توزع على أغراض جانبية خارجة عن الفكرة الأساسية . وقد بلغ من اثر الرسالة التي ضمنها مالك ابياته ان سعيدا لما سمع من مالك هذا القول علم انه ليس بصاحب ابل وانما هو رجل حرب فانطلق به صوبها.

ولم يقتصر دور مالك في الفتوحات على القتال فحسب بل وظف امكاناته الشعرية من اجل اثارة حماس الفاتحين ودعوتهم الى الكر والشد على الاعداء فهو القائل:

يا قـــل خـــيـــر أميـــرٍ كنـــتُ اتبعـــهُ أليس يرهبني ام ليـس يرجـــــونـــِي

ام ليس يرجو اذا ما الخيلُ شمصها وقـــع الاسنةِ عطفى حين يدعونـــــــِي

لاتـــحسبنا نـــسينـــا مـــن تـــقـــادُمهِ يوما بطاسى ويوم النهرِ ذا الطينِ(٣٠)

لقد آل ابن الريب على نفسه ان يكون عنصرا فاعلا في مجتمعه الجديد كما كان من قبل قائدا وراعيا لحركة التمرد والعصيان التي اعلنها ضد السلطة الحاكمة فهو صاحب رأي في الحروب التي خاضها سبيلا لنشر الدعوة سواء اكان بالكر ام بالفر ان دعا الداعي لذلك حفظا لارواح من معه من الجند فكانت ارائه سديدة في هذا المجال من ذلك اشارته لسعيد بن عفان بالانسحاب من الاماكن الشديدة البرودة والتي تعيق حركة الجيش وتعرضه للخطر اذ بانت حكمته وحنكته في هذا المضمار عندما صرح قائلا:

هبت شمال خريق اسقطت ورقا واصفر بالقاع بعد الخضرة الشـــــيح

فارحل هديت ولاتجعل غنيمتنا ثـلجـا تصفـفـــه بالـــتـرمـذ الريـــح

ان الشتاء عـــدو ما نقاتـلـــه فاقفـــل هديـــــت وثوب الرق مفـتـــوح(٣١)

وقد اذعن سعيد لرأي مالك لولا ان الخليفة في دمشق لم يرق له وفرة الانتصارات المتتابعة فارسل اليه طالبا العودة، فعاد ومعه مالك الا ان الاخير لم يكمل الطريق ولقي ربه وهو بسبيل العودة ودفنه صاحبه بعد ان رثى نفسه ذلك الرثاء الفريد الذي اشرنا اليه في موضع سابق من البحث.

ان طبيعة مالك بن الريب الخيرة والتي جبلت على احترام وتمجيد القيم السامية وتفضيل كل ما له علاقة بالمروءة والشهامة التي هي من طبيعة العربي اصلا غير انه يضطر احيانا للتعامل مع القيمة بوجهها الاخر استجابة:" لرغبات ذاتية او اجتماعية في الاعلان عن وجوده وعن مكانته وهيمنته، وهذا ما يولد لديه اما استهتارا بتلك القيم او خروجا عن المألوف فيها لبلوغ غاية تبدو له جوهرية"(٣٢).

الملخص

مالك بن الريب بن حوط بن قرط المازني التميمي، شاعر عربي عاش في بداية الدولة الأموية وتوفي سنة ٦٠ هجرية ٦٨٠ ميلادية.

عنما تدخل إلى حياة هذا الشاعر، والذي لم يحفظ التاريخ من شعره غير تلك القصيدة التي سنتناول حكايتها اليوم لن تجد في هذه الحياة ما يمهد لميلاد شاعر بحجم تلك القصيدة المقصودة، فمالك بن الريب رجل عادي لم يأت من سلالة الأعيان أو الأغنياء بل هو من عامة الناس ويعاني الفقر والبطالة، ولكنه في الوقت نفسه، يتميز بحسن الوجه، وقوة الجسد، وشجاعة المقاتل الذي لا يهاب الموت.

وفي زمنه، كانت الدولة العربية الإسلامية تتكون من خلال الفتوحات التي بدأت في الخلافة الراشدة، واستمرت في عهد بني أمية، وكان يمكن لمالك بن الريب لو أتيحت له فرصة التكوين العقائدي أن يشارك كمقاتل شرس في تلك الفتوحات.

ولكنه أمام الواقع المتمثل بزوجة صابرة محبة، وابنة محتاجة إلى رعاية أبيها وعنايته، وأم طاعنة في السن ليس لها سواه.. أمام هذا الواقع لم يجد مالك بن الريب من وسيلة لتأمين لقمة العيش إلا أن يصبح قاطع طريق، يمارس من خلال قطع الطرق السرقة بالإكراه.

شكل مالك بن الريب عصبته الخاصة والتي لم يزد عدد أفرادها عن أصابع اليد الواحدة، ولكن كلاً منهم كانت له شهرته التي وصلت إلى أولي الأمر، فحاولوا القضاء على تلك العصابة التي روعت الناس، فلم يستطيعوا.

كان شظاظ الضبي واحداً من أهم أفراد تلك العصابة وكان يضرب به المثل فيقال:" ألص من شظاظ". وكان أبو حردبة بن أثالة بن مازن أيضاً ركناً من أركان هذه العصابة كذلك كان غويث بن كعب بن مالك بن حنظلة.

ولكن مالك بن الريب كان يختلف عن هؤلاء بوسامته وحسن وجهه ومظهره الباهر كفارس من فرسان العرب وشجعانها.

ولقد عمل مروان بن الحكم عندما كان عاملاً على المدينة على القبض على تلك العصابة، ووجه إليهم عدة حملات كادت واحدة منها أن تنجح، ولكن مالك بن الريب تمكن من قتل حارسه والهرب، وتحرير باقي أفراد العصابة.

ويتغير ميدان عمل عصابة مالك بن الريب من الجزيرة العربية إلى خارج حدود العراق، وفي الطريق المؤدية إلى خراسان، في العام ٥٦ هجرية، وبينما كان سعيد بن عثمان بن عفان(رض) في طريقه من المدينة إلى البصرة إلى خراسان التي ولاه عليها معاوية بن أبي سفيان أول الخلفاء الأمويين، تم ذلك اللقاء التاريخي بين مالك بن الريب وسعيد بن عثمان، ودار ذلك الحوار المسجل في كثير من المراجع التاريخية.

رافق مالك بن الريب سعيد بن عثمان بن عفان إلى خراسان وأبلى مع جيش المسلمين بلاءً حسناً، وشهد فتح سمرقند وتحول من ذلك الخارج عن الدين والمجتمع إلى مجاهد فارس يتحلى بقيم الإسلام وفضائله إلى درجة تنسّك فيها وقام الليل مصلياً مسنغفراً.

وأدرك سعيد ببن عثمان أنه لم يكسب مجاهداً في صفوف المسلمين فحسب، بل حرم جبهة الشيطان من أهم مقاتليها.

وعندما هدأت الأمور وتمت الفتوح، رجع سعيد بن عثمان بن عفان إلى المدينة، ورجع معه مالك بن الريب، وفي طريق العودة، وفي وادٍ يقال له وادي الغضى تعددت الروايات، فمن رواية تقول: إن أفعى لدغته وبدأ سمها يسري في دمه ويموت تدريجياً إلى رواية أخرى تقول إنه مرض مرضاً شديداً أدرك معه أنه ميت لا محالة.

وسواء لدغته أفعى أم مرض، فإن المؤرخين يتفقون على أن القصيدة التي نظمها وهو يموت في رثاء نفسه كات من فرائد الشعر، لا ترقى إليها أية قصيدة رثاء أخرى.

ففي كلامنا الفاظ استعملها في الجاهلية ابو دؤاد الايادي وابو المثلم الخناعي والاعشى والاعلم الهذلي وامرؤ القيس واوس بن حجر وبشر بن ابي خازم وتميم بن ابي بن مقبل والحارث بن حلزة اليشكري والحطيئة ودريد بن الصمة وزهير بن ابي سلمى وضمرة بن ضمرة النهشلي وطرفة بن العبد وطفيل الغنوي وعبيد بن الابرص وعدي بن زيد ولبيد والمثقب والنابغة فقد جاءت(بتك) في شعر زهير و (تمطق) في شعر الاعشى و(الجلال) في شعر ابي دؤاد و(حدرة بدرة) في شعر امرؤ القيس و(خيم) في شعر لبيد و(الدحداح) في شعر تميم و(الشريعة) في شعر عدي بن زيد و(العكة) في شعر ابي الملثم و(الكلة) في شعر اوس و(الملة) في شعر الحطيئة و(النية) في شعر بشر و(الهيمان) في شعر الحارث بن حلزة واستعمل اباؤنا (الاسباب) بمعنى المتاع و(التقسيم) في الاعمال و(الخشل) بمعنى الحلي و (الخط) بمعنى الرسالة و (الدعوة) بمعنى الطعام و(الرجل) بمعنى الزواج و (الشدة) بمعنى الحزمة و(الشربة) بمعنى الجرة و(الصانع) بمعنى التلميذ والمتعلم والخادم و(طيب) بمعنى معافى وحي و(العالم) بمعنى الناس و(نفر) بمعنى الفرد والجندي و(الهور) بمعنى البحيرة في ايام العباسيين والمغول كما نستعملها نحن الآن .

هوامش البحث

١. ينظر الاغاني،للاصفهاني: ٢٢/٢٠٤.
٢. مجمع الامثال،للميداني:٢/٢٦٥.
٣. الموشح ،للمرزباني ص:٢٦٥
٤. الابداع والاتباع في اشعار فتاك العصر الاموي،د.عبد المطلب محمود ص:١٨.
٥. المحبر،ابن حبيب ص:٢١٣.
٦. لسان العرب مادة صعلك. وينظر الابداع والاتباع في شعر فتاك العصر الاموي ،ص:٢٢
٧. ينظر الابداع والاتباع في شعر فتاك العصر الاموي ص:٢٣.
٨. ينظر مقالات في الشعر ونقده، حسين عطوان ص:٦١.
٩. الابداع والاتباع ص:٢٠.
١٠. الشعراء الصعاليك في العصر الاموي ص:٧٥
١١. الظاهرة الادبية،احسان سركيس ص:٣١٥.
١٢. ينظر م.ن ، ص:٣١٥.
١٣. ينظر الاغاني:٢٢/٣٠٥.
١٤. سمط اللاليء،للبكري وايضا الاغاني للاصفهاني:٢٠/١٥٩.
١٥. ديوانه ص:٨١.
١٦. م.ن ص:٨٠.
١٧. ينظر الاغاني:٢٠/١٦٢.
١٨. ديوانه ص:٧٦.
١٩. م.ن ص: ٦٦. وينظر ايضا رحلة الشعر من الاموية الى العباسية ص:٣٥٥.
٢٠. ديوانه ص:٢٢.
٢١. ينظر العصر الاسلامي،د.شوقي ضيف ص:٣٦٩.وما بعدها
٢٢. ديوانه ص:٩٨
٢٣. م.ن ص:٥٥
٢٤. ديوانه ص: ٥٤ ينظر ايضا رحلة الشعر من اموية الى العباسية ص:٣٦٢.
٢٥. م.ن ص:٤٢
٢٦. م.ن٦٦

٢٧. م.ن ص: ٥٤ ينظر ايضا رحلة الشعر من الاموية الى العباسية، ص:٣٥٨.
٢٨. م.ن،ص:٠٩
٢٩. م.ن،ص:٩٩
٣٠. م.ن،ص:١٢١
٣١. م.ن، ص:٩٨
٣٢. م.ن ، ص:٨٧ .ينظر ايضا جدلية القيم في الشعر الجاهلي رؤية نقدية معاصرة ، د.بو جمعة بو عيعو، ص:١١.

المصادر والمراجع

١. الابداع والاتباع في شعر فتاك العصر الاموي_ ، د.عبد المطلب محمود، من منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق،٢٠٣.

٢. اشعار اللصوص واخبارهم،جمع وتحقيق عبد المعين الملوحي،منشورات دار اسامة،د.ت.

٣. الاغاني،لابي الفرج الاصفهاني_طبعة بيروت،٢٠٠٠

٤. تاريخ الادب العربي العصر الاسلامي،د.شوقي ضيف،دار المعارف،مصر،ط٧،١٩٦٣.

٥. جدلية القيم في الشعر الجاهلي رؤية نقدية معاصرة ، د.بو جمعة بو عيعو ،من منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق،٢٠٠١.

٦. رحلة الشعر من الاموية الى العباسية،د.مصطفى الشكعة،الدار المصرية اللبنانية،١٩٩٧.

٧. سمط اللاليء في شرح امالي القالي،ابو عبيد البكري، تحقيق عبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة،١٩٣٦.

٨. شعراء امويون،د.نوري حمودي القيسي،مكتبة النهضة العربية،ط١، ١٩٨٥.

٩. الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي،د.عبدة بدوي،الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٨٨

١٠. الشعراء الصعاليك، في والعصر الاموي، د.حسين عطوان، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠

١١. الظاهرة الادبية في صدر الاسلام والدولةالاموية، احسان سركيس، دار الطليعة، بيروت،١٩٨١.

١٢. قيم جديدة للادب العربي المعاصر والقديم،د.عائشة عبد الرحمن،دار المعارف،مصر،ط٢، ١٩٧٠.

١٣. لسان العرب،لابن منظور،دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤ه.

١٤. مجمع الامثال ، للامام ابو الفضل للميداني،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد

١٥. المحبر،لابي جعفر محمد بن حبيب،اعتنى بتصحيحه د.ايلزة ليختن،الافاق الجديدة،د.ت.

١٦. مقالات في الشعر والنقد، د حسين عطوان،دار الجيل ، بيروت،١٩٨٧.

١٧. الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، للمرزباني، تحقيق محمد علي البجاوي،مكتبة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ،

المجلات والدوريات

١. ديوان مالك بن الريب حياته وشعره،تحقيق د.نوري حمودي القيسي،مستل من مجلة معهد المخطوطات العربية، مج١٥،ج١،د.ت